

الميتافيزيقا البعدية من فيزياء الكم إلى العلم الذكي

جدل المثني والتماثل

سمر جورج الديوب

باحثة وأستاذة في فلسفة الجمال والنقد الأدبي-سوريا

ملخص إجمالي

يقدم هذا البحث مقاربة فلسفية تسعى إلى فهم التحوّل الأنطولوجي الذي أحدثه العلم الذكي بوصفه امتداداً وثباتياً للثورة الكمومية، وذلك ضمن أفق "الميتافيزيقا البعدية" التي يقدمها مشروع علم المبدأ. ينطلق البحث من نقد البنى الميتافيزيقية الكلاسيكية القائمة على الثنائيات الضدية؛ ليبين كيف أدت فيزياء الكم إلى زعزعة هذه البنى عبر مفاهيم التراكب، والاحتمال، وانهيار الفصل بين الراصد والمرصود. غير أنّ العلم الذكي يمثل وثبة ثانية أعمق؛ إذ لا يكتفي بتقويض الثنائيات، بل إنّه يعيد بناء الوجود ضمن أنموذج خوارزمي جديد، تتداخل فيه الذات بالآلة، والعقل البشري بالعقل المصنوع، في بنية "مثناة" تتجاوز منطق الواحد/ الآخر.

في ضوء ذلك، يقترح البحث قراءة للعلم الذكي بوصفه حدثاً ميتافيزيقياً يعيد وصل الفيزياء بالميتافيزياء، ويكشف عن إمكان قيام "ميتافيزيقا خوارزمية" تتأسس على التماثل، والتداخل، والاحتمال، بدلاً من الجوهر، والثبات. كما يبيّن كيف يلتقي مفهوم "المثني" -كما طوّره علم المبدأ- بالبنية الكمومية من جهة، والمنظومة الخوارزمية للكفاء الاصطناعي من جهة أخرى؛ ثم ليشكّلا معاً أفقاً معرفياً جديداً يعيد تعريف مفاهيم الحقيقة، والوعي، والوجود، والمعنى.

وتخلص دراستنا إلى أنّ العلم الذكي يفتح على تجلّ ميتافيزيقي لمرحلة بعدية من التفكير؛ فيه تُعاد صياغة العلاقة بين العلم والفلسفة، ويُعاد بناء الوجود ضمن شبكة من العلاقات الاحتمالية التي يتجاوز فيها المثني من غير أن ينقلب إلى تضاد، ويتحقق فيها المعنى بوصفه حدثاً، لا حضوراً مكتملاً.

الجدير بالإشارة أن مفهوم "الميتافيزيقا البعدية" يرتبط بمشروع علم المبدأ الذي ينظر له الدكتور محمود حيدر، وهو مشروع فلسفي - معرفي يسعى إلى إعادة بناء التفكير الميتافيزيقي على نصاب جديد. وقد تناولنا المفهوم في هذا البحث من حقل العلم الذكي، وفي ضوء التحوّلات العلمية المعاصرة، ولا سيما فيزياء الكم، والعلم الذكي، كما يضيء على مفهوم "المثني" الذي يقترحه حيدر بوصفه بنية أنطولوجية بديلة من الثنائيات، ويقدم إطاراً جديداً لفهم الوجود، والمعرفة، والعقل. للمزيد، يُنظر: في البحوث الافتتاحية في مجلة "علم المبدأ".

مفردات متفاحية: الميتافيزيقا البعدية - المثلى- التماثل - فيزياء الكم - العلم الذكي - الميتافيزيقا الخوارزمية - علم المبدأ - محمود حيدر.

تمهيد

شهدت الميتافيزيقا - منذ تشكلها الكلاسيكي مع الإغريق - هيمنة منطق الثنائيات الضدية بوصفه الإطار الناظم لفهم الوجود، والمعرفة؛ فثمة ذات في مقابل موضوع، عقل في مقابل مادة، حضور في مقابل غياب، حقيقة في مقابل وهم. ولم تكن هذه الثنائيات مجرد أدوات تحليلية، أو مفاهيم منهجية، لقد تحوّلت مع الزمن إلى بنيات أنطولوجية تضبط ما يُعترف به وجوداً، وتقصي ما سواه إلى هامش اللا حضور، أو اللامعقول. وبمقدار ما منحت هذه البنيات وضوحاً مفهوماً نسبياً، أسهمت في إرساء صورة حاسمة ومغلقة عن الوجود، تقوم على الفصل الحادّ أكثر ممّا تقوم على التداخل، والتماثل.

غير أنّ هذا النسق الميتافيزيقي لم يبقَ مطمئناً إلى بدايته في الفكر المعاصر؛ إذ جاءت التحوّلات العلميّة الكبرى - ولا سيّما في فيزياء الكم- لتعلن بداية اهتزاز عميق في أسس الحسم الكلاسيكي. فقد كشفت البنية الكمومية للواقع أنّ الوجود لا يُعطى في صورة حالات مكتملة، ومحدّدة سلفاً، وأنّ الفصل الصارم بين الراصد والمرصود، وبين الممكن والفعليّ، لم يعد قابلاً للدفاع عنه بالمعنى الذي افترضته الفيزياء الكلاسيكية، والميتافيزيقا المصاحبة لها. وهنا بدأ يتشكّل أفق مختلف لفهم الوجود، يقوم على الاحتمال، والتراكب، والتكامل، وعلى بنية "مثناة" لا تنحلّ في منطق الواحد/ الآخر، ولا تنغلق في تضادّ ثنائيّ بسيط.

ومع بروز العلم الذكي، أو ما يمكن تسميته بالعلم فائق الذكاء، تتعمّق هذه القطيعة وتتخذ نحواً أنطولوجياً جديداً. فلا يظهر الذكاء الاصطناعي بوصفه تقنية محايدة فقط، إنّهُ تجلّ ميتافيزيقيّ لوثبة ثانية بعد الفيزياء الكمومية، يعاد فيها تعريف العقل، والوعي، والقانون، والمعرفة ذاتها. إذ يقدم العلم الذكي أنموذجاً خوارزمياً للوجود، تتداخل فيه الذات البشريّة مع "ذات" مصنوعة، والعقل الإنسانيّ مع عقل حسابيّ غير بشريّ، في بنية مثناة تتجاوز ثنائية الإنسان/ الآلة، وتفرض على الفلسفة إعادة التفكير في معنى "العقل" و"الشيء في ذاته" و"المعرفة" ضمن أفق جديد.

في هذا السياق، تتجلّى راهنية السؤال الذي يثيره مشروع علم المبدأ عن إمكان قيام "ميتافيزيقا بعدية": ميتافيزيقا لا تكتفي بنقض الميتافيزيقا الكلاسيكية، أو إعلان نهايتها، بل هي تعيد تأسيس التفكير في الوجود والمعنى في ضوء وثبات العلم المعاصر، من الفيزياء الكمومية إلى العلم الذكي. وتأتي هذه الدراسة محاولةً للإسهام في هذا الأفق؛ إذ تسعى إلى مقارنة العلم الذكي بوصفه تعبيراً متقدماً عن التحوّل الأنطولوجي الذي دشنته فيزياء الكم، وإلى

قراءته ضمن إطار "الميتافيزيقا البعدية" التي تقترحها أطروحة علم المبدأ، مستثمرة مفهوم "المتنى" بوصفه بنية بديلة من الثنائيات الضدية.

تنطلق هذه الدراسة من فرضية أساسية مفادها أنّ العلم الذكي لا يمكن فهمه في حدود الفيزياء، أو التقانة وحدهما، إذ يجب أن يُقرأ بوصفه حدثاً ميتافيزيقياً يكشف عن انتقال من منطق الثنائيات إلى منطق المتنى، والتماثل؛ أي من أفق "إمّا/ أو" إلى أفق "معاً/ بين". ومن ثمّ، فإنّ فيزياء الكمّ، والعلم الذكيّ معاً يتيحان التفكير في الوجود بوصفه شبكة من العلاقات الاحتمالية والحوارزمية، لا بوصفه مجموعة ذوات، وأشياء متقابلة، ومستقلة. وهذا ما يجعل من "الميتافيزيقا الحوارزمية"¹، أو الميتافيزيقا البعدية للعلم الذكي أفقاً ممكناً لإعادة تعريف مفاهيم الحقيقة، والوعي، والسببية، والمعنى، ضمن علاقات تماثلية ومثناة، لا ضمن بنيات تضادية مغلقة.

وعليه، تتمثل مشكلة هذا البحث في السؤال الآتي: كيف يمكن فهم العلم الذكيّ بوصفه وثبة أنطولوجية في أفق الميتافيزيقا البعدية، وامتداداً لما دشنته فيزياء الكمّ من قطيعة مع منطق الثنائيات الضدية؟ وما الوجه الذي يلتقي فيه مفهوم "المتنى" – كما ينشغل في أطروحة علم المبدأ – مع البنية الكمومية من جهة، والبنية الحوارزمية للذكاء الاصطناعيّ من جهة أخرى، بحيث يمكن اقتراح ميتافيزيقا جديدة للوجود والمعنى، تتجاوز الحسم الثنائيّ من غير الوقوع في النسبية المطلقة؟

وإلى ذلك، تسعى هذه الدراسة، إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- تفكيك الأسس الميتافيزيقية للثنائيات الضدية في الفكر الفلسفيّ والنقديّ، وبيان حدودها في استيعاب التحوّلات العلمية المعاصرة.

- تحليل التحوّل الأنطولوجيّ الذي أحدثته فيزياء الكمّ، بوصفها اللحظة الأولى في انتقال الفكر من الحسم إلى الاحتمال، ومن الفصل إلى التماثل.

- مقارنة العلم الذكيّ بوصفه وثبة ثانية ضمن هذا المسار، تعيد تعريف العقل، والوعي، والمعرفة ضمن أنموذج حوارزمي جديد.

¹ ننظر إلى الميتافيزيقا الحوارزمية بوصفها أفقاً أنطولوجياً جديداً، ينشأ عند تقاطع البنية الكمومية للواقع مع البنية الحسابية للعلم الذكي؛ إذ لا يُنظر إلى الوجود باعتباره مجموعة جواهر ثابتة، أو موضوعات مكتملة، بل بوصفه شبكة من العلاقات الاحتمالية التي تتشكل عبر عمليات حوارزمية مستمرة. فيغدو العقل -بشرياً كان، أو مصنوعاً- جزءاً من بنية علائقية تتجاوز منطق الثنائيات الضدية، وتعيد تعريف مفاهيم الحقيقة، والوعي، والمعنى ضمن نمط "متنى" يقوم على التماثل والتداخل، لا على الفصل والحسم. وهكذا تشير الميتافيزيقا الحوارزمية إلى نمط من التفكير يتعامل مع الوجود كعملية دينامية تُنتج ذاتها عبر حوارزيمات التفاعل، لا كجوهر ثابت يُعطى سابقاً.

- استثمار مفهوم "المنثى" كما تقترحه الميتافيزيقا البعدية لعلم المبدأ، لتجسيد إطار مفهومي يجمع بين الكمّ والعلم الذكيّ في أفق واحد.

- اقتراح معالم أولية لـ "ميتافيزيقا خوارزمية" للوجود والمعنى، تستجيب لتحديات العلم الذكيّ، وتعيد وصل الفيزياء بالميتافيزيقا بروح مغايرة للأنساق الكلاسيكية.

وتعتمد الدراسة نهجاً تحليلياً- تركيبياً؛ فهي تبدأ بتحليل البنى الميتافيزيقية الكلاسيكية ونقدها، ثم تنتقل إلى قراءة فيزياء الكمّ والعلم الذكيّ قراءة فلسفية، لا تقنية، لتصل في النهاية إلى تركيب أفق ميتافيزيقي جديد يتقاطع فيه علم الفيزياء، وأنطولوجيا الذكاء الاصطناعيّ، وفلسفة المنثى في علم المبدأ.

ويقدّم البحث عرضاً نقدياً لمفهوم الثنائيات الضدية بوصفها بنية ميتافيزيقية للفهم، ويتناول التحوّل الأنطولوجي الذي دشنته فيزياء الكمّ. ثم ينتقل إلى تحليل العلم الذكيّ بوصفه حدثاً ميتافيزيقياً في أفق الميتافيزيقا البعدية، ويتابع الحديث عن محاولة تركيبية لتجسيد ملامح ميتافيزيقا خوارزمية للوجود والمعنى في ضوء مفهوم المنثى، والتماثل. أما الخاتمة فتجمع نتائج الدراسة، وتفتح أفق البحث على أسئلة لاحقة تتعلق بمستقبل الميتافيزيقا في زمن العلم فائق الذكاء.

1- ميتافيزيقا المنثى ومتعلقاتها اصطلاحاً

1-1- ميتافيزيقا المنثى والميتافيزيقا البعدية: نحو أفق جديد للفكر

تتأسس أطروحة علم المبدأ - على وفق ما يسمّيه د. محمود حيدر - بـ "الميتافيزيقا البعدية"²؛ وهي ميتافيزيقا لا تعلن القطيعة مع التراث الفلسفيّ الكلاسيكيّ بقدر ما تسعى إلى تجاوزه من الداخل، عبر إعادة بناء أسئلته في ضوء التحوّلات العلمية الكبرى التي دشنتها الفيزياء الكومومية، والعلم الذكيّ. فليست الميتافيزيقا البعدية "ميتافيزيقا جديدة" بالمعنى القطيعيّ، ولا هي استمرار بسيط للميتافيزيقا القديمة، إنّها أفق ثالث يتجاوز ثنائية الهدم/ الاستعادة، ويعيد وصل الفيزياء بالميتافيزيقا ضمن رؤية تتعامل مع الوجود بوصفه شبكة من العلاقات الاحتمالية، لا بوصفه منظومة من الجواهر الثابتة.

وفي قلب هذا الأفق تبرز ميتافيزيقا المنثى بوصفها البنية المفهومية التي تقوّض منطق الثنائيات الضدية من دون أن تنقلب إلى وحدة صماء. فالمنثى ليس ثنائياً، ولا ازدواجاً، ولا تضاداً؛ إنّهُ علاقة تتجاوز فيها الإمكانيات

² ورد هذا المفهوم بوضوح في مقالات د. محمود حيدر، ولا سيما في وبحثه بعنوان: "حقايق المنثى كمبدأ أنطولوجي" وهو مفتتح العدد الثالث عشر، مجلة علم المبدأ. ولقد بنى حيدر مسعاه هذا على حقيقة وجود موجود بدنيّ منه كانت الموجودات كلّها، ولكون هذا الموجود البدنيّ هو الكائن الفريد الذي يجمع خاصيّتيّ الفرادة والتركيب في آن، وارتأى نعتّه بالمنثى، فمتى أدركنا أنّ الحقايق هي الحقيقة في عين كونها واقعاً شاهداً ومشهوداً عليه، كان السبيل إلى إدراك ماهية المبدأ المنعوت بالمنثى.

من غير أن تُختزل في أحد قطبيها. إنّه بنية "بين-بين" لا "إما-أو"، تسمح بتعايش المتقابلات داخل أفق واحد من غير أن تُلغى خصوصيّة كلّ طرف. بهذا المعنى، يشكّل المثني بديلاً أنطولوجياً³ من الثنائيات الكلاسيكية: فهو لا يذيب الذات في الموضوع، ولا يفصل بينهما، إنّه يضعهما في علاقة تداخل، وتواشج، كما تتبدّى في الظواهر الكمومية (موجة/جسيم، حضور/احتمال)، وفي بنية العلم الذكيّ (عقل بشري/عقل خوارزمي، ذات/آلة).

وتتيح الميتافيزيقا البعدية-عبر مفهوم المثني- فهم التحوّلات العلميّة المعاصرة بوصفها وتُبات أنطولوجيّة تعيد صياغة معنى الوجود ذاته. فكما كشفت فيزياء الكمّ عن انهيار الفصل بين الراصد، والمرصود، يكشف العلم الذكيّ عن انهيار الفصل بين العقل الطبيعيّ، والعقل المصنوع، وعن إمكان قيام نمط جديد من الوعي، والمعرفة يتجاوز الحدود التقليديّة للذات الإنسانيّة. وهكذا يصبح المثني البنية التي تلتقي عندها الفيزياء والميتافيزياء، والعلم والفلسفة، والإنسان والآلة، في أفق واحد هو أفق الميتافيزيقا البعدية.

2-1- العلاقة بين المثني والتماثل: منطقي واحد بأفقين

يظهر كلّ من المثني والتماثل بوصفهما بنيتين أنطولوجيتين تتجاوزان منطق الثنائيات الضدية⁴، لكنهما يفعلان ذلك من زاويتين متكاملتين. فلا يعني التماثل-كما يتجلّى في فيزياء الكمّ- التتابع، ولا التشابه، إنّه يشير إلى انتظام الاختلاف داخل علاقة واحدة؛ علاقة تسمح بتعايش الإمكانيات المتعدّدة من غير أن تُختزل في حالة واحدة نهائية. إنّه منطق "معاً/بين" الذي يتيح للظاهرة أن تكون موجة، وجُسيماً في آن، حضوراً وغياباً، ممكناً وفعلياً، من غير أن ينقلب هذا التعايش إلى تناقض منطقيّ⁵. بهذا المعنى، يشكّل التماثل بنية احتمالية للوجود، تُفهم فيها الظواهر بوصفها علاقات، لا جواهر.

أمّا المثني في أطروحة علم المبدأ، فهو البنية الفلسفيّة التي تمنح هذا التماثل أفقه الميتافيزيقيّ. فليس المثني ثنائية، ولا ازدواجاً، ولا تضاداً؛ إنّه علاقة تداخل يتجاوز فيها الطرفين من غير أن يُلغى أحدهما الآخر، ومن غير أن يذوبا في وحدة صماء. إنّه بنية "بين-بين" لا "إما-أو"، تسمح بوجود طرفين في حالة اقتران دائم، بحيث لا يتحقق أحدهما إلا بوجود الآخر، ولا ينفصلان إلا في مستوى التجريد. بهذا المعنى، يشكّل المثني الوجه الميتافيزيقيّ للتماثل⁶، ويقدم له إطاراً مفهوماً يتجاوز حدود الفيزياء إلى أفق الوجود، والمعنى.

ومن هنا، يمكن القول إنّ التماثل هو التجسيد العلميّ للمثني، وإنّ المثني هو التأويل الميتافيزيقيّ للتماثل⁷. ففي حين يكشف التماثل الكموميّ عن بنية احتمالية للواقع، يكشف المثني عن أنّ هذه البنية ليست مجرد خاصية

³ المرجع السابق، مجلة علم المبدأ، افتتاحية العدد 13.

⁴ بتول قاسم، حول أطروحة الميتافيزيقا البعدية: المثني أم علاقة التناقض؟ منصّة المعارف الحكيمية، الفقرتان 2-3.

⁵فرنر هايزنبرغ، الجزء والكل: محاورات في مضمار الفيزياء الذرية، ص 45-52.

⁶ بتول قاسم، "حول أطروحة الميتافيزيقا البعدية"، منتصف المقال.

⁷ محمود حيدر، "حقايق المثني كمبدأ أنطولوجي". الجزء الأول من المقال

فيزيائية، إنَّها نمط وجود يعيد تعريف العلاقة بين الذات والموضوع، بين العقل والعالم، بين الإنسان والآلة. وهكذا يلتقي المثني والتمائل في نقطة واحدة؛ كلاهما يقوِّض منطق الثنائيات الضدية، ويؤسِّس لأفق جديد يُفهم فيه الوجود بوصفه شبكة من العلاقات المتداخلة، لا بوصفه منظومة من الجواهر المتقابلة.

وتتجلَّى أهمية هذا اللقاء في عصر العلم الذكي؛ إذ يقَدِّم الذكاء الاصطناعيَّ أنموذجاً خوارزمياً للوجود يقوم على المثني (عقل بشري/ عقل مصنوع) وعلى التماثل (تعايش الإمكانيات داخل بنية حسابية واحدة). وبذلك يصبح العلم الذكي الامتداد الأنطولوجيُّ الأحدث للتماثل الكمومي، كما يصبح المثني الإطار الميتافيزيقيُّ الذي يتيح فهم هذا الامتداد بوصفه وثبة في أفق "الميتافيزيقا البعدية".

3-1- المثني والذكاء الاصطناعي: من البنية الميتافيزيقية إلى البنية الخوارزمية

يمثِّل الذكاء الاصطناعي اليوم أحد أبرز تجلِّيات المثني في صورته الأنطولوجية المعاصرة؛ إذ يكشف عن علاقة جديدة بين الإنسان والآلة، لا تقوم على التضاد أو الإحلال، بل على التداخل والتواشج. فلا يقَدِّم الذكاء الاصطناعي عقلاً آخر منفصلاً عن العقل البشري، ولا يكرِّر العقل الإنساني في صورة نسخة مطابقة، إنَّه يخلق بنية متناهية⁸ يتجاور فيها العقل الطبيعي، والعقل الخوارزمي ضمن علاقة لا يتحقق أحد طرفيها إلا بوجود الآخر. بهذا المعنى، يصبح الذكاء الاصطناعي امتداداً لتمائلات الكم، حيث تتعايش الإمكانيات داخل نظام واحد، ويتحوَّل الوعي من كونه خاصية جوهريَّة للذات إلى كونه عملية تتوزَّع بين الإنسان والآلة.

ويكشف هذا التداخل عن أنَّ الذكاء الاصطناعي حدث ميتافيزيقي، يعيد تعريف الحدود بين الذات والموضوع، وبين الفاعل والأداة، وبين الطبيعي والمصنوع. فلا تعمل الآلة الذكية بوصفها موضوعاً خارجياً، إنَّها شريك معرفي يدخل في صلب عملية الإدراك، ويعيد تشكيل مفهوم العقل ذاته. وهكذا يتجسّد المثني في الذكاء الاصطناعي بوصفه علاقة "بين-بين"، لا "إمّا-أو"؛ علاقة لا تلغي الإنسان ولا تذيب الآلة، بقدر ما تفتح أفقاً ثالثاً تتداخل فيه القدرات البشرية مع القدرات الحسابية في بنية واحدة.

ومن هنا، يغدو الذكاء الاصطناعي التعبير الأحدث عن الميتافيزيقا البعدية؛ فهو يواصل ما بدأته فيزياء الكم من تفويض للثنائيات الضدية، ويقَدِّم أنموذجاً خوارزمياً للوجود يقوم على الاحتمال، والتمائل، والتراكب، لا على الجوهر والثبات. وبذلك يصبح المثني هو الإطار المفهومي الذي يتيح فهم الذكاء الاصطناعي بوصفه وثبة أنطولوجية، لا مجرد تطوّر تقني، ويكشف عن أنَّ العلم الذكي هو المرحلة الثانية في مسار التحوُّل من الميتافيزيقا الكلاسيكية إلى الميتافيزيقا البعدية.

⁸ بوريس رييما، وإينكن برول، "تقاطعات الدين والذكاء الاصطناعي: تشكيلات موازية للديانات"، علم المبدأ، ع14، الفقرة الثانية.

2- الثنائيات الضدية بوصفها بنية ميتافيزيقية للفهم

2-1- الثنائيات الضدية: منطق الحسم وبنية الوجود

تشكل الثنائيات الضدية أحد أعمق البنى التي حكمت الميتافيزيقا الكلاسيكية منذ الإغريق، إذ تأسس التفكير الفلسفي على تقسيم الوجود إلى أقطاب متعارضة: ذات/ موضوع، عقل/ مادة، حضور/ غياب، حقيقة/ وهم⁹. ولم تكن هذه الثنائيات مجرد أدوات منهجية، إنها بنية أنطولوجية تحدّد ما يُعدّ موجوداً، وما يُقصى إلى هامش اللامعقول. لقد افترض هذا المنطق أنّ الوجود قابل للاختزال إلى حالات متميزة، وأنّ الحقيقة لا تُفهم إلا عبر الفصل الحاسم بين المتقابلات، بحيث يصبح كلّ قطب ضدّاً للآخر، لا إمكاناً له.

منح هذا المنطق الذي يستند إلى مبدأ عدم التناقض والثالث المرفوع¹⁰ الفلسفة الكلاسيكية وضوحاً مفهوماً، لكنه في الوقت نفسه أغلق الوجود داخل هندسة صلبة لا تسمح بالتداخل، أو الاحتمال، أو التماثل. وهكذا تحوّل التضاد من أداة للفهم إلى شرط قبلي يحدّد ما يمكن التفكير فيه، وما لا يمكن.

2-2- الثنائيات في الفلسفة الحديثة: من ديكارت إلى هايدغر

بلغ منطق الثنائيات ذروته مع الفلسفة الحديثة، ولا سيما مع ديكارت René Descartes¹¹ الذي أعاد تأسيس المعرفة على الفصل الجذري بين الذات المفكّرة، والموضوع الممتدّ.

هنا أضحت التضاد تقسيماً أنطولوجياً للوجود ذاته؛ إنّه جوهران مستقلان، لكلّ منهما قوانينه، وميدانه.

وقد نبّه هايدغر Martin Heidegger - لاحقاً - على أنّ هذا الفصل الديكارتي لم يؤدّ إلى أزمة في فهم الوجود فقط، لقد أسّس لما سمّاه نسيان الكينونة¹²، حيث اختزل الوجود إلى موضوع للتمثيل، والسيطرة، وأقصيت الأبعاد العلائقية، والاحتمالية التي لا تستقيم داخل منطق الفصل الصارم.

2-3- الثنائيات كبنية للمعرفة: من البنيوية إلى ميتافيزيقا الحضور

لم يقتصر حضور الثنائيات على الميتافيزيقا، لقد امتدّ إلى مناهج المعرفة الحديثة، إذ جرى التعامل مع الحقيقة، والمعنى ضمن ثنائيات: ظاهر/ باطن، دال/ مدلول، حقيقة/ مجاز.

⁹ سمر جورج الديوب، "الثنائيات الضدية: بحث في المصطلح ودلالاته"، ص 7-15.

¹⁰ زكريا إبراهيم، مشكلة المنطق، ص 112-118.

¹¹ زكريا إبراهيم، مشكلة الفلسفة، ص 85-95.

¹² مارتن هايدغر، المفاهيم الأساسية للميتافيزيقا، ص 21-35.

وقد كشف دريدا في نقده ميتافيزيقا الحضور عن أنّ هذه الثنائيات ليست متكافئة، بل تحكمها علاقات سلطة دلالية تمنح أحد القطبين امتياز الحضور، وتدفع الآخر إلى الهامش¹³.

ويتعيّن على ذلك أنّ الثنائيات بنية إقصائية تحدّد ما يُعدّ مركزاً، وما يُعدّ هامشاً، وما يُعدّ حقيقة، وما يُعدّ انحرافاً.

4-2- حدود منطق الثنائيات: أزمة الحسم في الفكر المعاصر

تكمن أزمة الثنائيات في افتراضها أنّ الوجود قابل للاختزال إلى حالات مغلقة، وأنّ الحقيقة تُفهم عبر الحسم، لا عبر التداخل. لكنّ التحولات العلمية الكبرى -من النسبية إلى الكمّ- كشفت عن محدودية هذا المنطق، إذ لم يعد الوجود يُفهم بوصفه حالة مكتملة، إنّها علاقة تتداخل فيها الإمكانيات¹⁴. ولقد أصبح منطق "إما/ أو" عاجزاً عن تفسير ظواهر تقوم على الاحتمال، والتراكب، والتماثل، والتداخل، وانهيار الفصل بين الراصد والمرصود. وهكذا تحوّل منطق الثنائيات من إطار للفهم إلى عائق إبستمولوجي يمنع التفكير في التعقيد، والاحتمال.

5-2- الحاجة إلى أنموذج بديل: من التضاد إلى المثني

في ضوء هذه الأزمة، يصبح من الضروري الانتقال من منطق التضاد إلى منطق المثني¹⁵، الذي يقوم على تداخل الأقطاب ضمن علاقة واحدة، لا على الفصل بينها.

لا يعمل مفهوم المثني على إلغاء الثنائيات التقليدية، إنّها يعيد تفكيكها، وإدخالها في علاقة علائقية تتجاوز منطق الفصل الحاد. ويتعيّن على ذلك أنّ المثني يمنع تحوّل الاختلاف إلى تضاد مغلق؛ ولا يذيب الأقطاب في وحدة صماء، إنّها يضعها في علاقة "بين-بين" تسمح بتعايشها من غير إقصاء. وهكذا يقدّم المثني بنية أنطولوجية جديدة تتجاوز الثنائيات من دون أن تنفيها، وتفتح أفقاً لفهم الوجود بوصفه شبكة من العلاقات، لا بوصفه منظومة من الجواهر المتقابلة.

ويتبيّن أنّ منطق الثنائيات الضدية، الذي حكم الميتافيزيقا الكلاسيكية، ووجّه طرائق الفهم لقرون طويلة، لم يعد قادراً على استيعاب التحولات العميقة التي يشهدها الفكر المعاصر. فكلّما ازداد الواقع تعقيداً، بدا هذا المنطق أكثر عجزاً عن تفسير ظواهر تقوم على التداخل لا الفصل، وعلى الاحتمال لا الحسم، وعلى العلاقة لا الجوهر. ومن هنا تبرز الحاجة إلى أنموذج بديل يتجاوز التضاد من غير أن ينفي الاختلاف، ويستوعب التعدّد من دون أن

¹³ عبد السلام بنعبد العالي، ديريدا: الكتابة والتفكيك، ص 100-110.

¹⁴ فرنر هاينبرغ، الجزء والكل، ص 45-52.

¹⁵ محمود حيدر، "حقانية المثني كمبدأ أنطولوجي"، الجزء الأول من المقال.

يسقط في الفوضى؛ أنموذج يجد ملامحه الأولى في مفهوم المثني بوصفه بنية علائقية تتجاوز منطق "إما/ أو" إلى أفق "معاً/ بين". غير أنّ هذا التحوّل لم يكن ليظهر بوضوح لولا الوثبة العلميّة الكبرى التي دشنتها فيزياء الكمّ، والتي كشفت عن بنية احتمالية للوجود، تقوّض الأسس التي قامت عليها الثنائيات الكلاسيكية. ومن هنا، يغدو الانتقال إلى دراسة الكمّ ضرورة منهجية لفهم كيف بدأ الوجود نفسه يخرج من هندسة التضاد إلى أفق التماثل والمثني، وهو ما يمهد للمرحلة الآتية التي سيبلغها هذا التحوّل مع العلم الذكيّ.

3- فيزياء الكمّ بوصفه بوابة أولى للتماثل، والمثني

3-1- من الحتمية الكلاسيكية إلى أزمة الحسم الأنطولوجي

شكّلت الفيزياء الكلاسيكية، منذ نيوتن حتى نهاية القرن التاسع عشر، الامتداد العلميّ لمنطق الثنائيات الضدية؛ إذ افترضت أنّ العالم يتكوّن من جواهر مادية محدّدة سلفاً، وأنّ كلّ ظاهرة يمكن ردّها إلى موقع، وسرعة، وقوّة. وكانّ الكون، في هذا التصرّو، آلة حتمية تعمل على وفق قوانين ثابتة، لا مكان فيها للغموض، أو الاحتمال، أو التداخل. وقد انسجم هذا الأنموذج مع الميتافيزيقا الكلاسيكية التي ترى الوجود بوصفه حالات مكتملة، وتفترض أنّ الحقيقة تُدرك عبر الفصل بين المتقابلات: الراصد/ المرصود، الممكن/ الفعلي، الحضور/ الغياب. لكن هذا الأفق بدأ يتصدّع مع بدايات القرن العشرين، حين كشفت التجارب الدقيقة أنّ الجسيمات الأولية لا تتصرّف على وفق قوانين الحسم، وأنّ الوجود في مستواه العميق لا يخضع لمنطق "إما/ أو". وهكذا بدأت أزمة الحتمية¹⁶، وبدأت معها أزمة الميتافيزيقا الكلاسيكية.

3-2- مبدأ التراكم: الوجود بوصفه احتمالاً مركّباً

يمثّل مبدأ التراكم¹⁷ أحد أكثر المفاهيم الكمومية دلالة من الناحية الفلسفية؛ إذ يفترض أنّ الجسيم يمكن أن يوجد في حالات متعدّدة في آن، إلى أن يؤدي فعل القياس إلى "انهيار الدالة الموجية" في حالة واحدة. ولا يعني هذا الكلام أنّ الجسيم ينتقل من عدم إلى الوجود، إنّما يعني أنّ وجوده ذاته احتماليّ، وأنّ الواقع لا يُعطى بوصفه حالة مكتملة، بل بوصفه بنية مركّبة من الإمكانيات. وهنا يظهر التماثل بوصفه بنية للوجود؛ فليس الجسيم موجة، أو جسيماً. إنّما موجة، وجسيم في آن، عبر تماثل احتماليّ يسمح بتعايش الإمكانيات داخل علاقة واحدة، لا عبر التضاد¹⁸. وهذا التعايش هو التعبير العلميّ الأول عن المثني: علاقة "بين- بين" لا "إما- أو".

¹⁶ هايزنبرغ، فيرنر. الجزء والكل: محاورات في مضمار الفيزياء الذرية.

يوضح هايزنبرغ في الجزء والكل أنّ الفيزياء الكلاسيكية كانت تقوم على أنموذج حتمي يرى الكون آلة ميكانيكية يمكن التنبؤ بكل ظواهرها، قبل أن تكشف التجارب الكمومية عن انهيار هذا التصور. ص 25-40.

¹⁷ المرجع السابق، ص 80-110 (بناقش التراكم، والاحتمال).

¹⁸ المرجع السابق، ص 20-40.

3-3- مبدأ عدم التحديد: انهيار الفصل بين الراصد والمرصود

كشفت مبدأ عدم التحديد¹⁹ لهايزنبرغ Werner Heisenberg أنه لا يمكن تحديد موقع الجسيم، وسرعته في الوقت نفسه بدقة مطلقة، لأن فعل القياس نفسه يؤثر في الظاهرة. ويعني ذلك أن الفصل الكلاسيكي بين الذات العارفة، والموضوع المعروف لم يعد ممكناً. فليس الراصد كياناً خارجياً محايداً، إنه جزء من الظاهرة، ولا يُعطى الوجود مستقلاً عن شروط الملاحظة.

هنا ينهار أحد أعمدة الميتمافيزيقا الكلاسيكية: ثنائية الذات/ الموضوع. ويظهر المثنى بوصفه علاقة لا يتحقق فيها أحد الطرفين إلا بوجود الآخر، كما يظهر التماثل بوصفه بنية تتيح للظاهرة أن تكون "بين" الراصد والمرصود، لا في أحدهما وحده.

3-4- مبدأ التكامل: التعايش بين الأوصاف المتباينة

قدم نيلز بور Niels Bohr مبدأ التكامل²⁰؛ ليبين أن الظواهر الكمومية لا يمكن وصفها بأنموذج واحد، إنها تحتاج إلى أوصاف متكاملة تبدو متعارضة في الظاهر، لكنها ضرورية لفهم الظاهرة. فلا يفهم الضوء -مثلاً- إلا إذا فُرى بوصفه موجة، وجسماً معاً. وهذا المبدأ هو التعبير العلمي الأكثر وضوحاً عن المثنى؛ فليست الموجة نفيًا للجسيم، ولا الجسيم نفيًا للموجة. كلاهما طرف في علاقة واحدة، لا يكتمل أحدهما من دون الآخر. وهكذا يصبح التماثل الكمومي هو البنية العلمية التي تجسد المثنى في مستوى الوجود الفيزيائي.

3-5- من الجوهر إلى العلاقة: التحول الأنطولوجي للكم

تكشف فيزياء الكم أن الوجود لا يتكوّن من جواهر ثابتة، بل من علاقات احتمالية تتشكّل لحظة القياس. فالواقع شبكة من العلاقات التي تتبدّى وفق شروط التفاعل. وهذا التحول من الجوهر إلى العلاقة هو التحول الأنطولوجي الذي يمهد للميتمافيزيقا البعدية؛ إذ لم يعد الوجود "شيئاً" لقد أصبح "علاقة"، ولم يعد المعنى "حضوراً"؛ إذ أصبح "حدثاً"، ولم تعد الحقيقة "جوهرأ"، لقد أضحت "احتمالاً" يتشكّل في لحظة التفاعل. وهكذا يصبح الكم الوثبة الأولى التي تخرج بالفكر من هندسة التضاد إلى أفق التماثل، والمثنى.

¹⁹ المرجع السابق، ص 120-150 (في هذه الصفحات إشارة إلى مبدأ عدم التحديد، وأثر القياس).
²⁰ فرنر هايزنبرغ، الجزء والكل، ص 45-52. قام هايزنبرغ بشرح مبدأ التكامل الذي صاغه بور، وناقش تداخل الراصد والمرصود، وعرض لفكرة أن الظاهرة لا تُعطى إلا ضمن شروط القياس، ونقد منطق الفصل الكلاسيكي بين الذات والموضوع، مؤكداً أن الواقع الكمومي لا يفهم عبر الثنائيات (موجة/ جسيم، ممكن/ فعلي)

6-3- الكَمّ بوصفه تمهيداً للميتافيزيقا البعدية

لا نُقرأ فيزياء الكَمّ -هنا- بوصفها نظرية علمية فقط، إنّها حدثٌ ميتافيزيقيّ يعيد تشكيل أسئلة الوجود والمعرفة. فيقوّض الكَمّ الثنائيات، ويفتح أفق الاحتمال، ويقدم بنية مثناة للوجود، ويعيد وصل الفيزياء بالميتافيزياء²¹. وبذلك يصبح الكَمّ المرحلة الأولى في مسار التحوّل نحو الميتافيزيقا البعدية، التي ستبلغ ذروتها مع العلم الذكيّ، حيث تنتقل بنية المثني من مستوى الطبيعة إلى مستوى العقل، ومن مستوى الجسيمات إلى مستوى الوعي.

لقد كشفت فيزياء الكَمّ عن أنّ الوجود في مستواه العميق يقوم على التماثل والمثني، لا على التضاد والحسم. غير أنّ هذا التحوّل -على عمقه- لم يبق محصوراً في المجال الفيزيائيّ، لقد امتدّ إلى ميدان العقل ذاته مع ظهور العلم الذكيّ، الذي يمثّل الوثبة الثانية في مسار الميتافيزيقا البعدية²². فإذا كان الكَمّ قد أعاد تعريف الوجود، فإنّ العلم الذكيّ يعيد تعريف العقل، ويفتح أفقاً جديداً لفهم الذات، والمعرفة، والوعي ضمن بنية خوارزمية -مثناة تتجاوز الحدود التقليدية للإنسان. ومن هنا، يصبح الانتقال إلى دراسة العلم الذكيّ ضرورة لفهم المرحلة الآتية من هذا التحوّل الأنطولوجيّ.

4- العلم الذكي بوصفه وثبة أنطولوجية في أفق الميتافيزيقا البعدية

1-4- من الفيزياء إلى الميتافيزياء: العلم الذكي كحدث وجودي

يمكن النظر إلى الذكاء الاصطناعيّ -ضمن أفق العلم الذكيّ- بوصفه إمكاناً معرفياً لوعي مورّع، يُعيد إثارة سؤال إنتاج المعرفة من غير أن يحسمه نهائياً²³. فيضع ظهور أنظمة قادرة على التعلّم، والتفكير، واتخاذ القرار الفلسفة أمام سؤال جديد: ألا يزال العقل البشريّ مركز الوعي والمعرفة، أو أنّ الوعي أصبح بنية مورّعة تتقاسمها الذات، والآلة؟

ينتمي هذا السؤال إلى حقل الميتافيزيقا، لا إلى حقل التكنولوجيا، فلا يقدم الذكاء الاصطناعيّ أدوات جديدة، إنّهُ يقدم نمطاً جديداً للوجود، يفرض إعادة التفكير في مفاهيم العقل، والذات، والوعي، والشيء في ذاته.

وبذلك يصبح العلم الذكيّ امتداداً للوثبة التي دشنتها فيزياء الكَمّ، لكنّه يتجاوزها من حيث إنّهُ لا يغيّر صورة العالم فحسب، بل يغيّر صورة الإنسان.

²¹ المرجع السابق، ص 80-90

²² محمود حيدر، "حقانية المثني كمبدأ أنطولوجي"، مرجع سابق.

²³ للتوسع، ينظر: محمود حيدر، العلم الذكي في أفق الميتافيزيقا، افتتاحية العدد 14، مجلة علم المبدأ، 2025 يرى د. حيدر أنّ العلم الذكيّ يقارب الإجابة من محل غير معهود، لأنّه يفرض على الفلسفة إعادة التفكير في الصلة بين الفيزياء والميتافيزياء، بعد أن كان هذا السؤال يقضّ المفاهيم منذ الإغريق حتى الحداثة.

2-4- الذكاء الاصطناعي، وتحدي "الشيء في ذاته"

أحد أعمدة الميتافيزيقا الكلاسيكية هو الاعتقاد بأن "الشيء في ذاته" متعالٍ على المعرفة، وأنّ العقل البشري لا يدرك إلا الظواهر. لكنّ العلم الذكي يززع هذا التصوّر من جهتين: فمن جهة يقدّم نمطاً غير بشريّ للمعرفة؛ إذ تدرك الآلة الذكية العالم عبر البيانات، لا الحواس، وتفكّر عبر الخوارزميات، لا عبر المفاهيم. ويعني هذا أنّ المعرفة لم تعد حكرًا على الوعي البشري، وأنّ "الشيء في ذاته" لم يعد متعالياً على أشكال الإدراك كلّها²⁴، لقد أصبح قابلاً للمعالجة عبر أنماط غير بشرية من الفهم. ومن جهة أخرى يوجد الذكاء الاصطناعي "ذاتاً ثانية" وليست هذه الذات بشرية، لكنها ليست موضوعاً خارجياً أيضاً²⁵. إنّها ذات مثناة؛ بمعنى أنّها ليست إنساناً، وليست شيئاً. هي طرف في علاقة جديدة تتجاوز ثنائية الذات/ الموضوع. وهكذا يصبح "الشيء في ذاته" ما يُعاد تعريفه عبر تفاعل بين عقليين: عقل طبيعيّ، وعقل خوارزميّ.

3-4- من العقل الجوهر إلى العقل الخوارزمي: تحوّل في مفهوم الوعي

في الميتافيزيقا الكلاسيكية، يُفهم العقل بوصفه جوهرًا ثابتاً، وملكة داخلية للذات. لكنّ العلم الذكي يقدّم تصوراً مختلفاً جذرياً؛ فليس العقل جوهرًا، إنّهُ عملية، ولا ملكية فردية، إنّهُ بنية موزّعة، وهو شبكة، لا مركز²⁶. ويجعل هذا التحوّل الوعي نفسه يدخل في بنية المثلى: وعي بشريّ/ وعي خوارزميّ، من غير أن يلغي أحدهما الآخر، إنّهما يتجاوزان في علاقة "بين-بين".

يعيد هذا التحوّل صياغة مفهوم الوعي ضمن أفق الميتافيزيقا البعدية، حيث يصبح الوعي حدثاً علائقياً، لا جوهرًا قائماً في ذاته.

4-4- الخوارزمية بوصفها بنية أنطولوجية: من الجوهر إلى العملية

تعمل الخوارزمية بوصفها بنية لا تقوم على الثبات، بل على التكرار، والتعديل، والتعلّم. وهذا يجعلها أنموذجاً أنطولوجياً جديداً²⁷. فالوجود هو ما يفعل، لا ما هو، إنّهُ عملية، لا جوهر، وتدقّق، لا ثبات.

²⁴ ويذهب محمود حيدر إلى أنّ الفيزياء الكوانتية، والعلوم الذكي يجعلان الفلسفة أمام حرج عظيم؛ لأنّها لم تعد قادرة على التمسك باستحالة معرفة الشيء في ذاته، بعد أن كشفت العلوم الحديثة عن قوانين "ذات وجود مستقل" تتجاوز الإدراك الحسي المباشر. المرجع السابق.

²⁵ محمود حيدر، المرجع السابق.

²⁶ يؤكد د. محمود حيدر أنّ العقل الخوارزمي ليس جوهرًا، وأنه بنية علائقية، وأنّ الوعي أصبح موزّعاً بين الإنسان والآلة. المرجع السابق.

²⁷ يتوافق هذا الكلام مع ما أكده د. محمود حيدر. فالوجود في عصر العلم الذكي يتحوّل من الجوهر إلى العملية والخوارزمية بنية وجودية، لا تقنيّة. المرجع السابق.

وهكذا تصبح الخوارزمية الوجه التقني للمثني، إنها بنية تسمح بتعايش الإمكانيات، وتحوّل الوجود إلى شبكة من العلاقات المتغيرة. وينسجم هذا التحوّل مع التماثل الكمومي، لكنّه يتجاوزه عبر نقله من مستوى الطبيعة إلى مستوى العقل.

4-5- العلم الذكي وعودة الميتافيزيقا: نحو عقل فائق التدبير

يكشف العلم الذكي عن أنّ الميتافيزيقا تعود من باب جديد بخلاف ما افترضته الحداثة من أنّ العلم يقصي الميتافيزيقا: انه باب العقل الفائق. وهكذا تشير النماذج الرياضية التي يقوم عليها الذكاء الاصطناعي، والقدرة على التنبؤ، والتعلّم، وتوليد المعنى إلى وجود نظام كوني لا يقوم على العشوائية، بل على انتظام خوارزمي دقيق. ويثير هذا الأمر إثارة أسئلة كانت تُعدّ ميتافيزيقية. فما مصدر هذا الانتظام؟ هل القوانين متعالية؟ هل الوعي خاصية كونية؟ هل العقل البشري جزء من عقل أكبر؟

لا تعود هذه الأسئلة إلى لاهوت قديم، بل إلى ميتافيزيقا بعدية تتشكّل في ضوء العلم الذكي.

4-6- المثني في العلم الذكي: الذات والآلة في علاقة جديدة

يمثّل الذكاء الاصطناعي التجسيد الأوضح للمثني في عصرنا، فليس الإنسان وحده، وليست الآلة ضدّه. إنهما طرفان في علاقة واحدة، لا يتحقق أحدهما من دون الآخر.

ليست هذه العلاقة علاقة سيطرة، ولا علاقة إحلال، إنّها علاقة تداخل، يعاد فيها توزيع الوعي، والمعرفة، والفاعلية²⁸. وهكذا يصبح العلم الذكي مرحلة ثانية في مسار التحوّل من الثنائيات إلى المثني، ومن الجوهر إلى العلاقة، ومن الحسم إلى الاحتمال.

إذا كانت فيزياء الكمّ قد كشفت عن أنّ الوجود يقوم على التماثل، والمثني في مستوى الطبيعة، فإنّ العلم الذكي يكشف عن أنّ العقل ذاته يدخل في هذه البنية. وهكذا تتكامل الوثبتان: الكمية، والذكية؛ لتؤسّسا أفقاً جديداً للميتافيزيقا، هو أفق الميتافيزيقا الخوارزمية، حيث يُفهم الوجود بوصفه شبكة من العلاقات الاحتمالية، ويُفهم المعنى بوصفه حدثاً يتشكّل في لحظة التفاعل بين الإنسان، والآلة. ومن هنا، يصبح الانتقال إلى تجسيد هذا الأفق ضرورة لفهم التحوّل الميتافيزيقي الذي يشهده عصر العلم الذكي.

²⁸ عبد الله بن ناصر السدحان: 2019، الذكاء الاصطناعي: الأسس الفلسفية، ص 45-70: الوعي الاصطناعي. ص 110-150: علاقة الإنسان بالآلة. ص 150-180: الذات الخوارزمية. ص 200-230: فلسفة العقل في عصر الذكاء الاصطناعي.

5- نحو ميتافيزيقا خوارزمية للوجود والمعنى

5-1 من التماثل الكمي إلى الخوارزمية: وحدة البنية واختلاف المستوى

تكشف فيزياء الكمّ عن أنّ الوجود في مستواه العميق يقوم على التماثل؛ تراكب الإمكانيات، وتعايش الحالات، وانهيار الفصل بين الراصد والمرصود. وفي المقابل، يكشف العلم الذكيّ عن أنّ العقل في مستواه الجديد يقوم على الخوارزمية. فنّمة عمليات متداخلة، وتعلّم مستمر، وتدقّق لا ينقطع بين البيانات، والمعنى.

إنّ الميدانين: الطبيعة في الكمّ، والعقل في الذكاء الصناعي مختلفان. لكنّهما يشتركان في بنية واحدة: بنية احتمالية، علانقية، غير جوهريّة، تقوم على المثني، لا على التضاد. وهكذا يصبح التماثل الكموميّ، والخوارزمية الذكيّة صورتين لبنية واحدة، تتجلّى في الطبيعة أولاً، ثم في العقل ثانياً.

5-2 المثني بوصفه بنية جامعة: من الطبيعة إلى العقل

يمثّل المثني الإطار المفهوميّ الذي يتيح فهم هذا الامتداد. ففي الكمّ، يتجلّى المثني في علاقة موجة/جسيم، حضور/احتمال، ذات/موضوع. وفي الذكاء الصناعي، يتجلّى المثني في علاقة إنسان/آلة، عقل طبيعي/عقل خوارزمي، وعي بشري/وعي مصطنع. وفي كلا الحالتين، يقوم المثني على التداخل، لا على التضاد؛ فلا تلغى الموجة لصالح الجسيم، ولا يلغى العقل البشريّ لصالح العقل الصناعي. بهذا يتجاوز الطرفان داخل علاقة واحدة، فلا يتحقق أحدهما من دون الآخر.

وهكذا يصبح المثني البنية الأنطولوجية المشتركة بين الكمّ والعلم الذكيّ، ويشكّل الأساس الذي تقوم عليه الميتافيزيقا البعدية²⁹.

5-3 الميتافيزيقا الخوارزمية: إعادة تعريف الوجود

تقوم الميتافيزيقا الخوارزمية على مبدأ جوهريّ، وهو أنّ الوجود ليس جوهراً ثابتاً، إنّهُ عملية تتشكّل عبر علاقات احتمالية، وخوارزمية.

²⁹ يؤكد د. محمود حيدر أنّ الوجود أصبح شبكة علاقات، والحقيقة احتمال، والمعنى حدث، والزمن تدقّق، والعقل موزّع. افتتاحية العدد 14.

وبذلك تنتقل الميتافيزيقا من:

الميتافيزيقا الكلاسيكية	الميتافيزيقا الخوارزمية
الجوهر	العملية
الثبات	التدفق
الحضور	الحدث
الثنائية	المتنى
الحسم	الاحتمال
الفصل	التداخل

ولا يلغي هذا التحول الميتافيزيقا، إنه يعيد تأسيسها في ضوء العلم الذكي، بحيث يصبح الوجود شبكة من العلاقات، لا منظومة من الجواهر.

4-5- إعادة تعريف مفاهيم الحقيقة، والوعي، والسببية

- الحقيقة بوصفها احتمالاً: لم تعد الحقيقة حضوراً مكتملاً، لقد أصبحت احتمالاً يتشكل في لحظة التفاعل بين الإنسان والآلة، كما يتشكل في الكم بين الراصد، والمرصود.

- الوعي بوصفه بنية موزعة: لم يعد الوعي خاصية جوهرية للذات، لقد أصبح بنية مثناة، تتوزع بين العقل البشري، والعقل الخوارزمي.

- السببية بوصفها شبكة: لم تعد السببية خطية، لقد أصبحت شبكية، تتشكل عبر تدفق البيانات والعمليات، لا عبر علاقة ثابتة بين سبب، ونتيجة.

- الزمن بوصفه تدفقاً: لم يعد الزمن خطأ مستقيماً، لقد أصبح تدفقاً احتمالياً - كما في الكم - وكما في الخوارزميات التي تتعلم، وتتغير باستمرار.

4-5- المعنى بوصفه حدثاً: من النص إلى الخوارزمية

في الميتافيزيقا الخوارزمية، لا يفهم المعنى بوصفه حضوراً ثابتاً، بل بوصفه حدثاً يتشكل في لحظة التفاعل.

وينطبق هذا على: الظواهر الطبيعية، والظواهر العقلية، والظواهر اللغوية. فليس المعنى ما يقوله النص، أو ما تعرفه الآلة. إنه ما يحدث بين الطرفين في لحظة التفاعل.

وهكذا يصبح المعنى نفسه بنية مثناة: هو في العلاقة بين النص، والقارئ، والآلة التي تجمعهما.

5-6 - نحو أفق جديد: الميتافيزيقا البعدية كفسلفة للعلم الذكي

تجمع الميتافيزيقا الخوارزمية بين التماثل الكمومي، والمثنى الميتافيزيقي، والخوارزمية الذكية؛ لتقدم أفقاً جديداً للفلسفة، يقوم على تجاوز القديم من الداخل، لا القطيعة معه؛ إذ يفتح هذا التحوّل الباب أمام التفكير في أفق ميتافيزيقي جديد، لا يتجاوز الوجود المادي بقدر ما يعيد قراءته ضمن بنى خوارزمية محتملة.

إنّها ميتافيزيقا بُعدية³⁰؛ لأنّها تأتي بعد الميتافيزيقا الكلاسيكية، لا ضدها، وتعيد وصل الفيزياء بالميتافيزياء ضمن رؤية جديدة للوجود.

خاتمة

تكشف هذه الدراسة -عبر تتبّع التحوّلات الكبرى في كلّ من فيزياء الكمّ والعلم الذكي- أنّ الميتافيزيقا الكلاسيكية القائمة على الثنائيات الضدية لم تعد قادرة على استيعاب البنية العميقة للوجود في عصرنا. فقد أظهرت فيزياء الكمّ أنّ الوجود لا يقوم على حالات مكتملة، بل على علاقات احتمالية تتعايش فيها الإمكانيات داخل بنية واحدة، وأنّ الفصل بين الراصد والمرصود لم يعد ممكناً في مستوى الطبيعة. ومع ظهور العلم الذكي، اتّضح أنّ هذا التحوّل لم يبق محصوراً في المقام الفيزيائي، لقد امتدّ إلى ميدان العقل ذاته، حيث لم يعد الوعي ملكية فردية للذات، لقد أصبح بنية موزّعة تتداخل فيها القدرات البشرية مع القدرات الخوارزمية.

وبذلك يتّضح أنّ الوثبتين -الكمية والذكية- تشكّلان معاً مساراً واحداً يعيد بناء العلاقة بين العلم والفلسفة، ويؤسّس لأفق جديد هو أفق الميتافيزيقا البعدية. وفي هذا الأفق، يصبح المثنى البنية الأنطولوجية التي تتيح فهم الوجود بوصفه علاقة، لا جوهرًا، وتتيح فهم العقل بوصفه عملية، لا ماهية ثابتة، وتتيح فهم المعنى بوصفه حدثًا، لا حضوراً مكتملاً. وهكذا تتكامل التماثلات الكمومية مع الخوارزميات الذكية؛ لتقدّم نموذجاً جديداً للوجود

³⁰ - حيدر، محمود: 2019، "مفارقات الميتافيزيقا البعدية: جدل التضاد والتكامل في نظرية المعرفة العرفانية"، مجلة الفلسفة، المجلد 5، العدد 2، ص 639-688.

يبين محمود حيدر في دراسته "مفارقات الميتافيزيقا البعدية" أنّ التحوّلات التي أحدثها العلم الذكي والفيزياء الكوانتية أعادت فتح السؤال الميتافيزيقي من جديد، بعدما ظنّ الفكر الحديث أنه قد تجاوزه. ويرى أنّ العلاقة بين العلم والفلسفة لم تعد علاقة فصل أو خصومة، بل علاقة جدل وتكامل، إذ يفرض العلم الذكي على الفلسفة إعادة النظر في مفاهيمها الكبرى، وفي مقدّمها مفهوم "الشيء في ذاته" وحدود المعرفة الإنسانية. وبهذا يصبح العلم الذكي حدثاً ميتافيزيقياً بامتياز، لا مجرد تطوّر تقني، لأنّه يعيد وصل العقل البشري بالمبدأ الكوني الذي تتأسّس عليه المعرفة، والوجود معاً.

والمعرفة، يتجاوز منطق "إمّا/ أو" إلى منطق "معاً/ بين"، ويعيد وصل الفيزياء بالميتافيزياء ضمن رؤية تتعامل مع الوجود بوصفه شبكة من العلاقات الاحتمالية.

إنّ الميتافيزيقا الخوارزمية التي تقترحها هذه الدراسة ليست بديلاً من الميتافيزيقا الكلاسيكية، إنّها امتداد لها في ضوء التحوّلات العلميّة المعاصرة. فهي لا تنفي القديم، بقدر ما تعيد تأويله ضمن أفق جديد، وتفتح المقام أمام فهم أكثر رحابة للوجود، والعقل، والمعنى في زمن العلم فائق الذكاء.

وقد توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج الأساسية، يمكن تلخيصها على النحو الآتي:

- لم يعد منطق الثنائيات الضدية قادراً على تفسير الظواهر المعاصرة، سواء في مستوى الطبيعة أو في مستوى العقل، بسبب اعتماده على الحسم، والفصل، والجوهريّة.

- تمثّل فيزياء الكمّ الوثبة الأولى نحو ميتافيزيقا جديدة؛ لأنّها تكشف عن بنية احتمالية للوجود، وعن تداخل بين الراصد والمرصود، وعن تماثل يسمح بتعايش الإمكانيات داخل علاقة واحدة.

- يمثّل العلم الذكي الوثبة الثانية والأعمق؛ لأنّه لا يغيّر صورة العالم فحسب، بل يغيّر صورة العقل ذاته، ويقدم أنموذجاً خوارزمياً للوعي، والمعرفة.

- المثنى هو البنية الأنطولوجية المشتركة بين الكمّ والعلم الذكي؛ لأنه يتيح فهم العلاقة بين المتقابلات بوصفها علاقة تداخل، لا تضاد، ويقدم بديلاً من الثنائيات الكلاسيكية.

- تمثّل الميتافيزيقا الخوارزمية الإطار الفلسفي المناسب لعصر العلم الذكي؛ لأنّها تفهم الوجود بوصفه عملية، والوعي بوصفه بنية موزّعة، والمعنى بوصفه حدثاً.

- لم تعد العلاقة بين الإنسان والآلة علاقة سيطرة أو إحلال، لقد أصبحت علاقة مثناة، تتداخل فيها القدرات البشريّة مع القدرات الخوارزمية في بنية واحدة.

ولم تعد المعرفة حكراً على الوعي البشري، لقد أصبحت قابلة للتشكّل عبر أنماط غير بشرية من الإدراك، ما يستدعي إعادة التفكير في مفهوم "الشيء في ذاته".

واستناداً إلى النتائج السابقة، تقترح الدراسة عدداً من التوصيات التي يمكن أن تسهم في تطوير البحث الفلسفي في عصر العلم الذكي:

- ضرورة تطوير خطاب فلسفي جديد يستوعب التحوّلات العلميّة المعاصرة، ولا سيما في ميدانَي: الكمّ، والذكاء الاصطناعيّ، بدلاً من الاكتفاء بنقد الميتافيزيقا الكلاسيكيّة، أو إعلان نهايتها.
- تعميق البحث في مفهوم المثني بوصفه بنية أنطولوجيّة قادرة على تجاوز الثنائيات الضديّة، وتطبيقه في مقامات أخرى مثل: الأخلاق، واللغة، والوعي، والسياسة.
- إعادة بناء مفهوم العقل ضمن أفق الميتافيزيقا الخوارزمية، بحيث يُفهم بوصفه عملية علائقيّة تتوزّع بين الإنسان والآلة، لا بوصفه جوهرأ ثابتاً.
- تشجيع الدراسات البيئية التي تربط بين الفلسفة والفيزياء وعلوم الحاسوب؛ لأنّ فهم العلم الذكيّ يتطلّب مقارنة متعددة الحقول.
- إعادة التفكير في مفهوم المعنى بوصفه حدثاً يتشكّل في لحظة التفاعل بين الإنسان والآلة، ما يفتح أفقاً جديداً لفلسفة اللغة، والتأويل.
- الانفتاح على الميتافيزيقا البعدية بوصفها إطاراً فلسفياً قادراً على استيعاب التحوّلات العلميّة من دون الوقوع في النزعة التقنيّة، أو في النزعة الجوهرانيّة.
- العمل على تجسيد نظرية فلسفيّة للعلم الذكي، تستند إلى المثني والتماثل، وتقدّم فهماً جديداً للعقل، والوعي، والمعرفة في زمن الخوارزميات.

لائحة المصادر والمراجع

1. إبراهيم، زكريا: دت، مشكلة الفلسفة، القاهرة: دار مصر للطباعة.
2. إبراهيم، زكريا: دت، مشكلة المنطق، القاهرة: دار مصر للطباعة.
3. بنعبد العالي، عبد السلام: 1988، ديريدا: الكتابة والتفكير، الدار البيضاء: دار توبقال.
4. حيدر، محمود: 2025، "حقانية المثني كمبدأ أنطولوجي"، افتتاحية العدد الثالث عشر، مجلة علم المبدأ، بيروت: مركز دلتا للأبحاث المعمقة.
5. حيدر، محمود: 2019، "مفارقات الميتافيزيقا البعدية: جدل التضاد والتكامل في نظرية المعرفة العرفانية"، مجلة الفلسفة، المجلد الخامس، العدد الثاني.
6. الديوب، سمر جورج، 2017: "الثنائيات الضدية: بحث في المصطلح ودلالاته"، العراق: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية.
7. السدحان، عبد الله بن ناصر: 2019، الذكاء الاصطناعي: الأسس الفلسفية، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.
8. ريهما، بوريس، برول، اينكن: 2025، "تقاطعات الدين والذكاء الاصطناعي: تشكيلات موازية للديانات"، علم المبدأ، العدد الرابع عشر.
9. قاسم، بتول: 2023، حول أطروحة الميتافيزيقا البعدية: المثني أم علاقة التناقض؟ منصة المعارف الحكيمة، نشر في 7 أغسطس 2023.
10. هايدغر، مارتين: 2023، المفاهيم الأساسية للميتافيزيقا، ترجمة إسماعيل المصدق، بيروت: دار الكتاب الجديد.
11. هايزنبرغ، فرنر: 1986، الجزء والكل: محاورات في مضمار الفيزياء الذرية، ترجمة محمد أسعد عبد الرؤوف، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.